

الأدباء الفلاسفة وأثرهم في الإصلاح الاجتماعي نماذج القرن الرابع
الهجري
(التوحيدي ومسكويه وإخوان الصفاء)

م. د. نورس إبراهيم عبد الهادي

Writers, philosophers and their role in social reform
Study models of the fourth century AH (Al-touhada and
Miskawayh and Brethren of Purity)

Dr. Nawres Ibrahim Abdel Hadi

ملخص البحث

تنوعت التيارات الفكرية الإصلاحية التي شهدها القرن الرابع الهجري على وجه الخصوص ، والتي كانت تهدف الى إصلاح الوضع القائم آنذاك وتحقيق مجتمع فاضل يسوده الأمن والعدل والأخلاق الفاضلة . وقد كان لبعض الأدباء الفلاسفة دور بارز في مثل هذه التوجهات الإصلاحية ، منها المحاولات الفردية التي قام بها كل من التوحيدي ومسكويه . فالتوحيدي كان يرى أنه بصالح الراعي تصلح الرعية ، أي إذا أردنا إصلاح مجتمع فعلينا أولاً بإصلاح السلطة السياسية ، لذلك اتخذ التوحيدي طريقه بمجالسة الحكام والوزراء قصد افادتهم ثقافياً من جانب ، وإطلاعهم على أحوال المجتمع والعامّة وما تعانيه من ظلم واضطهاد من جانب آخر . على عكس الفيلسوف مسكويه الذي اقتضت فلسفته الأخلاقية ان يبدأ من المجتمع ، وتحديد الفرد الذي يُعدّ لبنة أساسية في بناء مجتمع جديد من خلال غرس أخلاق جديدة فاضلة فيه ، لنصل الى بناء المجتمع المنشود .

أما التوجه الآخر ، فقد كان توجهها جمعياً ممثلاً بتنظيم (إخوان الصفاء وخلان الوفاء) ، فأفراد هذا التنظيم لم يكن هدفهم دينياً أخلاقياً تنويرياً وحسب من خلال إضافتهم الى الثقافات الداخلية ثقافات أجنبية متنوعة ، بل كان لهم مشروع جماعي اتخذوا فيه من المعرفة طريقاً لإذكاء الوعي السياسي لدى الشباب لتحقيق مجتمع فاضل ، في صورة دولة علمانية موحدة تكفل العدل الاجتماعي لسائر الرعايا باختلاف أصولهم الإثنية وعقائدهم ونحلهم وملهم . ويمكننا القول أن هؤلاء الأدباء الفلاسفة ابتكروا أسلوباً جديداً في المعارضة ؛ مفيداً من أخفاق الحركات الثورية ، وهو أسلوب النضال المعرفي ذي النفس الطويل ، والذي يتخذ من الإنسان محوراً أساسياً فيه .

Abstract:

Varied reformist intellectual trends witnessed by the fourth century, in particular, which was designed to reform the then status quo and achieve virtuous society dominated by security, justice and morality. For some writers, philosophers have had a prominent role in such reformist trends, including individual attempts by both ALtoughada and Miskawayh, Altoughada he believed that the goodness of fit Shepherd parish, that is, if we want to reform a society we must first reform of political power, So I took the Unification way Bmajalsp rulers and ministers intent on the part of their evidence culturally, and inform them of the conditions of society and the public and suffering from injustice and persecution on the other. Unlike Miskawayh philosopher who require moral philosophy that starts from the community, and specifically the individual, which is a basic building block in the construction of a new society by instilling a new ethics utopia where, to build up to the desired community. The other trend, it has been a trend a collective representing organized (Brethren of Purity and Holan fulfilled) with members of this organization goal was not religiously morally instructive According through them to the internal cultures cultures foreign variety, but they had a collective project took the knowledge of a way to stoke political awareness among young people to achieve good society, in the form of a unified secular state to ensure social justice for all citizens.

We can say that these writers, philosophers devised a new approach in opposition; useful from the failure of the revolutionary movements, a technique long struggle with cognitive psychology, which takes human central part of it.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وبعد ..

فقد شهد القرن الرابع الهجري، العصر الذهبي للحضارة العربية الاسلامية ، تداعيات كثيرة على المستويات السياسية والاجتماعية والقيمية ، بفعل ضعف السلطة العباسية واستحكام سيطرة العناصر غير العربية على الحكم ، ومن الطبيعي أن يتأثر الفكر بمثل تلك الاحوال ، لهذا السبب تنوعت التيارات الفكرية الاصلاحية التي شهدها القرن الرابع الهجري ممثلة بجهود نخبة من الأدباء الفلاسفة كالتوحيدي ومسكويه واخوان الصفاء ، التي حاولت تشخيص مواطن الضعف والخلل التي عانى منها المجتمع آنذاك ، وايجاد الحلول لخلق مجتمع فاضل يسوده الامن والسلام والطمأنينة والاخلاق الفاضلة .

لقد مثل القرن الرابع الهجري عصر ازدهار الثقافات والعلوم الفلسفية بشكل قل نظيره في تراثنا العربي ، وقد مزج هؤلاء الادباء الفلاسفة بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافات الفلسفية الوافدة محاولين إيجاد ثقافة تخاطب المجتمع وتحقق له العدل والسلم في خضم حالة الفوضى والهلع التي عاشها الناس في ذلك الوقت . لذا شكل الانسان محورا أساسيا في أفكارهم الاصلاحية ، فهو الركيزة التي يبنى عليها صلاح المجتمع .

انقسمت خطة البحث على تمهيد ومبحثين تسبقهما مقدمة وتعبهما خاتمة . تضمن التمهيد إضاءة على القرن الرابع الهجري ، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وقيما وبشكل موجز بسبب كثرة الدراسات في هذا المضمار .

أما المبحث الأول ، فقد كان مخصصا لتيار الاصلاح الفردي لكل من أبي حيان التوحيدي ومسكويه ، لأن كل منهما سلك طريقا مختلفا عن الآخر رغم اتفاقهما على الهدف العام ، وهو الاصلاح.

في حين كان المبحث الثاني مخصصا لتيار الاصلاح الجمعي الذي مثله إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، الذين اعتمدوا ذواتهم وامكاناتهم التنظيمية لتطبيق برنامجهم الاصلاحية . أما الخاتمة ، فقد بينا فيها أهم النتائج التي توصلنا لها في بحثنا هذا.

التمهيد : إضاءة على القرن الرابع الهجري^(١)

عُرف القرن الرابع الهجري ، بـ (العهد البويهي)^(٢) نسبة الى الحكام البويهيين الذين استولوا على بغداد مقر الخلافة العباسية وبقية الأمصار الأخرى من سنة ٣٤٤-٤٤٧ هـ بعد سلسلة من الاضطرابات والفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية عمّت البلاد على يد الأتراك في العهد السابق^(٣) كان من أبرز نتائجها انقسام المملكة الاسلامية على دويلات صغيرة منفصلة عن بعضها^(٤).

إن قيام الدولة البويهية في قلب الخلافة العباسية ليس مجرد (انتقال للسلطة من أسرة حاكمة الى أخرى ، ولكنه حدث تاريخي وحضاري هام ، لأنه نقل السلطة من طبقة اجتماعية الى اخرى ، ومن قومية الى أخرى ، ومن مذهب ديني الى آخر)^(٥) . فهي أول دولة في المركز تنتمي لأصول عامية، وكانوا من الديالمة الفرس يطغى عليهم الطابع العسكري والتنظيم القبلي ، فضلا عن ذلك فهم شيعة زيدية اعتنقوا المذهب الشيعي على يد أحد العلويين هناك^(٦).

وإذا كان العهد البويهي ينماز بازدهار الحركة العلمية والثقافية^(٧)، إلا انه من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لم يكن الا امتدادا لعهد المماليك الأتراك العسكريين. فقد دبّ النزاع بين امراء البيت البويهي خاصة بعد عهد الأخوة المؤسسين وحاول كل أمير بويهي أن ينزع السلطة من الآخر مما عرض الملك البويهي لتقسيمات كثيرة قادت الى انهياره . وقد كان الصراع الدموي بين عضد الدولة^(٨) وابن عمه بختيار بن معز الدولة (٣٥٦-٣٦٧ هـ) فاتحة لهذه الظاهرة^(٩).

كان الغزو البويهي حدثا تاريخيا بعيد الأثر ، إذ انه كان فاتحة عهود السيطرة الأجنبية في البلدان العربية ، وبداية انحراف في التطور الاقتصادي ، من الاعتماد على التجارة والنقد الى الاعتماد على الزراعة ، والى نشوء نظام من الاقطاع العسكري^(١٠). وكانت الأغلبية الساحقة من سكان المجتمع العربي _ الإسلامي في العصر العباسي، تقع في تبعية تامة للدولة الإقطاعية التي كانت تنفذ بلا كلل وظيفتها الأساسية وهي تعزيز سيادة الملاكين العقاريين واستثمارهم المرهق للفلاحين الفقراء والعبيد والعوام. وقد أدت الضرائب الثقيلة وشدة الاستغلال الإقطاعي وارتفاع الأسعار والغلاء والجوع وانتشار الامراض ووحشية الاستثمار العبودي والتعسف الحكومي الى ثورات الفلاحين والعبيد والعوام على حكم بني العباس، مما جعل النضال يتسم بصفاته الطبقيّة^(١١). ويكفي ما ذكره التنوخي عن روى له إنه (شاهد في وقت الغلاء الشديد الذي كان ببغداد ، ونواحيها ، في سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة، امرأة قد شوت ولدها ، وجلست تأكله ..)

(١٢). ولم تقف العامة مكتوفة الأيدي ، فاخذت تتحرك للحصول على حقوقها مما زاد من حدة الاضطرابات المتمثلة بفتن العامة وما كان يصحبها من تخريب ونهب وحرانق .
وقد بلغت المنظومة القيمية (المال) أوجها في هذا العصر ، فقد كان معز الدولة (٣٣٤-٥٣٥٦هـ) أكثرهم نهبا للأموال عن طريق المصادرات خاصة، وبيع الوظائف الرسمية بما فيها الوظائف الشرعية مثل القضاء ولا يتورع عن تضمين بعض الوظائف الشرعية لمن لا يستحقها ، فضمن القضاء لابن أبي الشوارب مقابل مائتي الف درهم سنويا ، كما ضمن الحسبة والشرطة ببغداد بعشرين الف درهم. وقد أضحى للجند دور كبير وخطير لم يقف عند الجوانب السياسية ، وكان أشد في المجال الاقتصادي ، لان كثرة شغبه ومطالبته المادية ، وعجز الخزينة عن الاستجابة ، دفعت الأمراء البويهيين منذ المرحلة التأسيسية إلى إقطاعهم الأراضي بدلا من الرواتب استرضاء لهم ودفعا لشغبهم

، مما دفع إلى بروز الإقطاع العسكري(١٣).

وانماز هذا العهد بكثرة الصراعات المذهبية بين السنة من الحنابلة وبين الشيعة والمعتزلة ، ولم يكن التعبير عنها على صعيد الافكار والمناضرات الكلامية فحسب بل كان الخصوم يعبرون عنها بحد السيف في الشوارع وفي مواجهات دامية وعن عمليات النهب وحرق الاسواق والاحياء السكنية إذ أضحى هذا الصراع المذهبي الديني تعبيراً ايديولوجيا عكس صراعا اجتماعيا ذو اصول اقتصادية ، وكان العيارون يشاركون في الاحداث ليس بدافع نضالي بل من أجل الغنائم والانتقام من الأثرياء ما دفع الى اعتبار تلك المواجهات غير ناتجة عن خلاف مذهبي بل عن صراع طبقي حقيقي(١٤). قال التوحيدي(١٥) مصورا تلك الحالة من الفوضى في القرن الرابع: (ولما كانت أوائل الأمور على ما شرحت ، وأواسطها على ما وصفت ، كان من نتائجها هذه الفتن والمذاهب ، والتعصب والإفراط وما تفاقم منها وزاد وعلا وتراقى ، وضافت الحيل عن تدراكه وإصلاحه . وصارت العامة مع جهلها ، تجد قوة من خاصتها مع علمها ، فسفكت الدماء ، واستبجح الحريم ، وشنت الغارات ، وخربت الديارات ، وكثر الجدل ، وطال القيل والقال ، وفشا الكذب والمحال ، وأصبح طالب الحق حيران ، ومحب السلامة مقصودا بكل لسان وسنان ، وصار الناس أحزابا في النحل والأديان..)(١٦).

وبسبب التفاوت الهائل في المستوى المعيشي ، أصبح للمال قيمة مركزية ، بل أضحى (قيمة القيم) وفقدت أمام سلطانه القوي الكثير من القيم الأصيلة ، كالأخاء والوفاء والمروءة والكرامة وغيرها ، مركزيتها لحساب قيم اخرى كالانانية والبخل والذاتية والذلة والمخرقة . ونما الشعور بالغبن والغربة الذي يكاد يكون سمة مميزة لهؤلاء المهمشين ، ولاسيما في القرن الرابع الهجري الذي شهد انقلابا في المنظومة القيمية حتى صار المنكر معروفا والمعروف منكرا . ولاشك ان آدم متز كان على حق عندما قال: (أصبحت للمال قوة عظيمة ، حتى سحقت طاحونته الكبيرة كل قيمة اخرى ، وكل شيء صار يعرض من أجل المال ، وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة)(١٧). وكلما ازداد اعتبار المال مركز الاهتمام الوحيد ازداد تهميش قيم الشرف والمبادئ والجمال وطمأنينة الروح ، ولذلك تزداد النزعة الى الاستهتار والسخرية بهذه القيم الوجودية العليا التي أصبحت تعرض للبيع واصبح لها ثمن شأنها شأن البضائع .

ومن الطبيعي أن يشكل كل خلل في التوازن السياسي والاجتماعي حافزا يدفع الفكر للبحث عن استرداد هذا التوازن ، أو البحث عن توازن يقوم على أساس جديد ، بعد أن لم يكن الأساس السابق صالحا لذلك(١٨) ، والمفكرون نهضوا بمثل هذا الدور ، كما فعل ثلة من الأديباء المتأثرين بالثقافات الفلسفية التي انتشرت وتنوعت باختلاف مصادرها في القرن الرابع الهجري(١٩) ، وقد قاد ذلك الازدهار الفلسفي الى نشوء مدرسة أدبية جديدة تمزج بين الفكر الفلسفي والفن الأدبي ، من أبرز أعلامها التوحيدي ومسكويه واخوان الصفاء ، أن هذه الازدواجية بين الادب والفلسفة هي التي جعلت ياقوت الحموي يصف التوحيدي بأنه (فيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة) ، وكذلك الأمر بالنسبة لمسكويه وإخوان الصفاء(٢٠) . كما سنبين في المباحث القادمة .

المبحث الأول : تيار الإصلاح الفردي ، التوحيدي ومسكويه

أولاً: أبو حيان التوحيدي

يمثل التوحيدي معلماً ثقافياً بارزاً من أعلام القرن الرابع الهجري ، فقد (كان متفنناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ..فرد الدنيا الذي لانظير له ذكاء وفطنة ومكنة ..) (٢١). وقال فيه آدم متر (كان أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق) (٢٢). وتمثل مؤلفاته وثنائمه مهمة تعكس مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ومع هذا كله يعد التوحيدي أنموذجاً للاديب الهامشي (٢٣) ، يقول عنه ياقوت في معجمه (ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجه في ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجائب) (٢٤). وقد كان مُضيقاً عليه في العيش حتى أفضى به الأمر الى أكل الخضر في الصحراء والى احراق كتبه (٢٥). وكان يرى شبابه "هرما بالفقر" (٢٦) وأن كل ما لحقه من مهانة وخمول ذكر وحرقة في النفس ، إنما هو بسبب الفقر. فلا غرو أن يتوجه الى الله سائلاً: (اللهم صُنْ وجوهنا باليسار ولا تبدلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شرار خلقك، فنبتلى بحمد من أعطى وذم من منع وأنت من دونهما ولي الإعطاء ، وببيدك خزائن الأرض والسماء ، ياذا الجلال والإكرام) (٢٧).

وبسبب هذا الفقر كان أبو حيان مضطراً الى العيش بين العامة والمهمشين وكان يتأفف من ذلك ويقول: (والله لربما صليت في الجامع فلا أرى جنبي من يصلي معي ، فإن اتفق فبقال، أو عصار، أو نداف، أو قصاب، ومن إذا وقف الى جانبي أسدرني بصنائه، وأسكرني بنبئه، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، ..) (٢٨). فالتوحيدي كان ينتمي الى هؤلاء العامة من حيث المنشأ ، وإن كان قد تمرد عليهم ، وابتعد عنهم حين امتلاك طبقة المعرفة ، ونخبويتها المتعالية على الرعاع والدهماء . ولكن هذه الطبقة الخاصة تزدرية ، ولا تعترف بانتمائه اليها ، لانه كثيراً ما تناول على بعض رجالاتها، فيصفهم بالجهل والخساسة ، ويبدي نحوهم الاحتقار والتعالي ما يثير حقدهم عليه ، فظل مهمشاً منبوذاً (٢٩). كتب مرة الى أبي الوفاء المهندس (٣٠) ضائفاً بتلك الحياة التي تنتافى مع قيمه الأصيلة (الى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية ، والقميص المرقع وباقلي درب الحاجب .. الى متى التادم بالخبز والزيتون؟ قد والله بُح الحلق وتغير الخلق ، الله الله في أمري ، أجبرني فاني مكسور ، اسقني فاني صد ، أغثنني فاني ملهوف ، شهرني فاني غفل ، حلني فاني عاطل، قد اذلني السفر من بلد الى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي، وتباعد عني القريب مني) (٣١). وقد تأثر بطرق المكدين في أدبه ، حتى عدّه "عمدة لبني ساسان" (٣٢). وعلى الرغم من بؤسه إلا أنه اختار طريق الإصلاح لتغيير الوضع الراهن وفساده عن طريق تثقيف النخب الحاكمة وتعريفها بالحقائق وما خفي عنها .

ومن خلال اتصال التوحيدي بالوزير ابن سعدان (٣٣) بوساطة من أبي الوفاء المهندس الذي عرفه عليه ، اتاحت الفرصة له للتعبير عن أفكاره السياسية بصورة جريئة ، واجلسه مجلس المفكر الناصح للسلطان والمشير عليه (فلم تعد السياسة عند أبي حيان مجرد مبحث فلسفي خاض فيه قداماء اليونان، فنظر فيه فلاسفة المسلمين بالشرح والتعليق النظريين ، ولم يعد كذلك أداها سلطانية متأثرة عن ملوك الفرس يجب التثقف بها ، وإنما اصبحت فعلاً يمارس قصد تغيير الواقع واصلاح فساده) (٣٤). فهي المؤثر الأساسي في أغلب مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية (٣٥). فالتوحيدي يعتقد أن الفساد العام المستشري في المجتمع بأسره ، يرجع الى فساد السلطة السياسية . ومن ثم فإن الإصلاح العام يجب ان ينطلق من اصلاح الأصل

الفاقد ، لأنه بصلاح الراعي تصلح الرعية ، فقد قال في هذا المعنى (قال حكماء فارس : قد جربنا الملوك ، فإذا مَلَكْنَا السَّميحَ الجواد ، جادت علينا السماء والأرض ، وإذا مَلَكْنَا البخيل ، بخلت علينا السماء والأرض)^(٣٦).

وبإيمان التوحيدي بضرورة ارتباط العلم بالعمل فعليهما تقاس سعادة الانسان (الانتفاع بالعلم دليل على سعادة الانسان ، وسعادة الانسان مقسومة على اقتباس العلم والتماس العمل ، حتى يكون باحدهما زارعا ، وبالاخر حاصدا ، وباحدهما تاجرا ، وبالاخر رابحا)^(٣٧). ومن هذا المنطلق كانت ثقافة التوحيدي مسخرة في خدمة الوزير ابن سعدان (فالثقافة هنا ليست هدفا في ذاتها ، وإنما هي إحدى الوسائل الضرورية لإصلاح السائس حتى تصلح به الرعية)^(٣٨).

نقل لنا التوحيدي صورا كثيرة من المجتمع الذي عاش فيه تصور لنا غياب الأمن وانعدام الاستقرار والخوف الذي تعيشه العامة وسائر طبقات المجتمع بسبب غياب دور السلطة وانهماكها في الملذات ، كما عكست لنا الدور المهم الذي نهض به المثقف في سبيل توعية السلطة وتبيان مواطن الضعف والخلل ، وإعادة الأمن والاستقرار للرعية . من ذلك ما رواه التوحيدي عن الاحداث الخارجية الخطيرة التي عاشتها بغداد والموصل في سنة ٥٣٦٢ هـ ، على اثر غزو الروم لأطراف البلاد ، والرعب والخوف والهلع الذي أصاب الناس اثر توغلهم في البلاد دون أن يجدوا من يقف في وجه زحفهم ، لأن الأمير عز الدولة كان منشغلا بالصيد. ونشب الخلاف بين طبقات المجتمع خاصتها وعامتها على طريقة مواجهة هذا الأمر الجسيم ، فاجتمع الناس عند (الشيوخ والأماثل والوجوه والأشراف والعلماء وعجوا وضجوا وقالوا : الله الله انظروا أمر الضعفاء وأحوال الفقراء ؛ واغضبوا لله ولدينه ... فسكن المشايخ منهم ، وطيبوا انفسهم ، وقوّوا مُنتهم ..)^(٣٩). وكوّنوا جماعة من العلماء والأدباء منهم علي بن عيسى ، وأبو أحمد الجرجاني القاضي البليغ ، وابو بكر الرازي وغيرهم^(٤٠). عقدوا العزم على الذهاب لعز الدولة بالكوفة ليحذروه من مخاطر الأمر ، ويبلغوه غضب العامة واستنكارها وتهديدها له بخلع طاعتها عنه ، مبينين (ما قد شمل مدينة السلام من الاهتمام ؛ وأن الخوف قد غلبهم ، وأن الذعر قد ملكهم ؛ وأنهم يقولون : لو كان لنا خليفة أو امير أو ناظر سائس لم يفض الأمر الى هذه الشناعة ؛ وان أمير المؤمنين المطيع لله إنما ولاه ما وراء بابه ليتيقظ في ليله ، متفكرا في مصالح الرعايا .. وإلا فلا طاعة ..)^(٤١).

ان في كلام الناس وعيا واضحا بفساد سياسة عز الدولة الدينية والدنيوية ، مما أفقد المجتمع أمنه ووحدته . وما يؤكد عمق هذا الوعي ان هذه الثورة على الحاكم كان دافعها الخوف على مستقبل البلاد ، وانها حملت نظرة سياسية واعية بواجبات الحاكم ودعوة الى تدارك الوضع قبل إعلان العصيان^(٤٢).

وسارت الجماعة الى الكوفة ولحقت عز الدولة وانتظرت ، فلم يلتفت اليهم (وكان وافر الحظ من سوء الادب قليل التحاشي من أهل الفضل والحكمة)^(٤٤) وهذا يؤكد فساد أخلاق عز الدولة مع رسل الرعية مما يؤكد توتر العلاقة بينه وبين الناس ، وبعد حوار محتدم بين الطرفين رفض عز الدولة أن يكون المسؤول عن فساد الأحوال معللا موقفه بالقول : (كما تكونون يولى عليكم .. والله لو لم تكونوا أشباهي لما وليتكم)^(٤٥). وفي نهاية الأمر وعدمهم بمواجهة الخطر المحدق بهم .

لقد كان المثقفون هنا ممثلين عن الضمير الجمعي للمجتمع في ظل ماكان سائدا من اضطراب شامل في مختلف النواحي الاجتماعية والسياسية والقيمية. كما برز اثرهم بشكل واضح في إعادة الأمن والاستقرار للمجتمع من خلال تهدئة هذه الجموع الثائرة نفسيا، فضلا عن دورها في مواجهة السلطة السياسية وتنبئها على تقصيرها بواجباتها تجاه الرعية .

ونظرا لاختلاط التوحيدي بالعامة ، فقد كان على علم تام بما تعانيه وتقاسيه . وقد حاول بكل جراءة نقل ما تقوله العامة عن السلطة ممثلة بالوزير ابن سعدان ، فقال : (سمعت بباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشط ، فلما نزل الوزير ليركب المركب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر وتهتك صاحب العيال ، وانه

اجابهم بجواب مر مع قطوب الوجه واطهار التبرم بالاستغاثة بعد لم تأكلوا النخالة) (٤٦). فاقسم الوزير أنه ما بدر منه ذلك وإنما هي إشاعة مغرضة من تدبير عدوه ابن يوسف لإثاره العامة ضده. أما النتيجة العملية المباشرة لسعي التوحيدي هذا ، فقد تمثلت في أمر الوزير (بيع الخبز ثمانية بدرهم ، ويصل ذلك الى الفقراء في كل محلة ...) وبذلك تمكن الوزير بفعل تدخل التوحيدي من اخماد فتنة محتملة، بل وانقلب الامر لصالحه -أي ابن سعدون- فابلغه التوحيدي (بنشر الدعاء له في الجوامع والمجامع بطول البقاء ودوام العلاء وكبت الاعداء ونصر الاولياء) (٤٧). وليس هناك شك ان هذه الشائعات ما كان يكتب لها النجاح والرواج ولهج الناس بها لولا فساد العلاقة بين الراعي والرعية .

وقد عبّر الوزير ابن سعدان يوما عن غيظه الشديد لما يبلغه عن العامة من خوضها في أمره (وتتبعها لأسرارنا، وتتغيرها عن مكنون أحوالنا) (٤٨). وأخذ يتوعدها (بقطع السنة وأيد وأرجل وتنكيل شديد، لعل ذلك يطرح الهيبة ، ويحسم المادة ، ويقطع هذه العادة ..) (٤٩). لكن التوحيدية وبجراً وصراحة قل نظيرها رد عليه بجوابين مبينين ان ما سيقوله من حق فيه مرارة ، ولكن (الجملة خشناء وفيها بعض الغلظة ، والحق مر ومن توخى الحق ، احتمل مرارته) (٥٠). فسمح له الوزير بالتكلم ، أولهما ما ذكره سليمان المنطقي الفيلسوف استاذ التوحيدي (ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائس الناس: عامتهم وخاصتهم ، وضعيفهم وقويهم ، وراجحهم وشانلهم ، ان يضجر مما يبلغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة ، منها : ان عقله فوق عقولهم ، وحلمه أفضل من حلومهم ، وصبره أتم من صبرهم ؛ ومنها انما جعلوا تحت قدرته ، ونيطوا بتدبيره ، واختبروا بتصريفهم على أمره ونهيه ، ليقوم بحق الله تعالى فيهم ، ويصبر على جاهلهم ، ويكون عماد حاله معهم الرفق بهم ، والقيام بمصالحهم ..) (٥١). وهو موقف مهم يدل على وعي التوحيدي بضرورة مراقبة الرعية لسياسة الحكام ، وان لا يضجر من اهتمام العامة بسيرته وأموره لأنه أعطي من العقل والمهام السياسية ما يدفعه للتغاضي عن ذلك واستيعابه.

ومنها (ان العلاقة التي بين الوالد السلطان وبين الرعية قوية لأنها الهية ، وهي أوشج من الرحم التي تكون بين الوالد والولد ، والملك والولد كبير ، كما ان الوالد ملك صغير ، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرفق به ، والحنو عليه ، والرقه له ، واجتلاب المنفعة اليه ، أثر مما يجب على الولد في طاعة والده ، ذلك أن الولد غرٌّ وقريب العهد بالكون ، وجاهل بالحال .. كذلك الرعية الشبيهة بالولد ، وكذلك الملك الشبيه بالوالد .. أن الملك لا يكون ملكا إلا بالرعية ، كما أن الرعية لا تكون رعية إلا بالملك ..) (٥٢). وسبب هذه العلاقة الوثيقة بينهما ، ان الملك لا يمكن ان يكون ملكا دون رعية ، والامر نفسه مع الرعية التي لا تتمكن من تسيير أمورها دون راع يوجهها ويحميها .

ويؤكد التوحيدي ان من حق الرعية أن تبحث في أمر الراعي ، مبينا أسباب ذلك على لسان الرعية

(ولم لا نبحت عن أمرك ؟ ولم لا نسمع كل غث وسمين منا ؟ وقد ملكت نواصينا ، وسكنت ديارنا ، وصادرتنا على أموالنا ، وحُلت بيننا وبين ضياعنا ، وقاسمتنا مواريتنا ، وأنسيتنا رفاغة العيش ، وطيب الحياة ، وطمانينة القلب ، فطرقنا مخوفة ، ومساكننا منزولة ، وضياعنا مُقطعة ، ونعمنا مسلوبة ، وحرماننا مستباح ، ونقدنا زائف ، خراجنا مضاعف ، ومعاملتنا سيئة ، وجندينا متغطرس ، وشرطيّنا منحرف ، ومساجدنا خربة ، ورفوفها منتهبة ، ومارستاناتنا خاوية ، واعدائنا مستكلبة ، وغيوثنا سخينة ، وصُدورنا مغيضة ، وبلبيّتنا متصلة ، وفرحنا معدوم ..) (٥٣)، هذا النص يمثل وثيقة مهمة من الوثائق التي ساقها التوحيدي عن القرن الرابع الهجري تعكس تدهور الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فعبارات مثل (طمانينة القلب ، وطرقنا مخوفة، فرحنا معدوم..الى غيرها) تدل على انعدام الأمن ، وشيوع الخوف بين افراد المجتمع . ولقد اضاف التوحيدي بأنهم -أي الرعية- مصيبون في ذلك (هيبة لك ، وخوفا

على أنفسها من سطوتك وصولتك) (٥٤). فلم تعد السياسة في نظر التوحيدي حكرا على رجال السياسة ، وجريرة يجرم بها غيرهم من الرعايا. كما ناقش التوحيدي قضايا كثيرة تتعلق بالسلطان وحاشيته ، منها أخلاق السائس واقباله على اللهو والعبث وانعكاس ذلك على الخاصة والعامة ، فمن كانت اخلاقه على هذا النحو (ازدرته واستهانت به ، وحدثت عنه باخلاق الخنازير وعادات الحمير واستهانة الخاصة والعامة بالنظر في امرها ..) (٥٥). وهذا يؤدي الى زوال هيبة السلطان ويفتح الباب للفتن والثورات (لأن اللص إذا رأى مكانا حصينا وعهد عليه حراسا لم يُحدث نفسه بالتعرض له ، وإنما يقصد قصرا فيه ثلثة ، وبابا اليه طريق ..) (٥٦).

ويندر أن نجد في تراثنا العربي من واجه سلطانا يمثل هذه الصراحة والحماس والجرأة ، مدافعا عن حق الرعية ، (حتى إنه ليتمكن أن نقارن كلام التوحيدي هذا لابن سعدان بلائحة لوم موجهة الى حكومة من قبل معارضة برلمانية في عصرنا الحالي ، فقد تضمنت هذه اللائحة تشخيصا دقيقا لما كان يعاني منه المجتمع البويهي في الربع الاخير من القرن الرابع الهجري) (٥٧). ومما لاشك فيه (كان التوحيدي إحدى الشخصيات النادرة في التاريخ الاسلامي والتي انتفضت وثارَت باسم الانسان ومن أجل الانسان) (٥٨). ولهذا قال مقولته الشهيرة (ان الإنسان اشكل عليه الإنسان) (٥٩). ويمكن أن نضع ثقافة التوحيدي تحت مصطلح الأنسية ، هذه الثقافة تنطلق في رؤية كل مافي الحياة والمجتمع والكون من جهة الإنسان وترى ان لكل ما في الكون إنما هو لخدمته في تحقيق انسانيته (٦٠).

يتضح مما تقدم الدور الكبير الذي لعبه التوحيدي في تحقيق السلم الاجتماعي ، عن طريق الاتصال النخب الحاكمة وتعريفها بهوموم ومصاعب العامة ، على الرغم من المخاطر التي يلاقيها المثقف جراء هذا التوجيه والمساس بحدود السلطة الحاكمة .

ثانيا: ابن مسكويه (٦١)

يُعدُّ ابن مسكويه ابن القرن الرابع الهجري نشأة وثقافة ، وقد عرف هذا القرن ازدهارا ثقافيا قلَّ نظيره في تاريخ العرب ، وكان عصر المدارس الفكرية والفلسفية خاصة . وقد ألمَّ مسكويه بثقافات متنوعه، فقد تتقَّف بعُلوم الأوائل ، قال عنه الثعالبي: (في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر) (٦٢). كما احتلت الفلسفة حيزا كبيرا من اهتمامه وفكره ، فقد (شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية ، واطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان ، ويرى القارئ في آثاره ظلالات كثيرة لأراء سقراط وجالينوس وارسطو طاليس. ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء فافتقى مناهج اليونان في عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية) (٦٣).

وقد أتاح له العمل مع الحكام والوزراء بدولة بني بويه ان يطلع على ثقافات كثيرة ، فقد عمل خازنا للكتب في عهد ابن العميد (٦٤) وعضد الدولة وكسب ثقتهم واحترامهم مما دفع ابن العميد ان يجعله مؤدبا لولده أبي الفتح (٦٥). فضلا عن ذلك فقد منحه قربه من السلطة السياسية ورموزها معرفة دقيقة بمواضع الضعف والقوة في هذه الدولة مما سيكون له أثره في مشروعه الاصلاحى . لذلك احتلت المسألة السياسية مكانة مهمة في فكره ، حتى يبدو جليا (ان طلبه للفلسفة لم يكن وحسب شغفا بالمعرفة النظرية التي كان يعتبرها الغذاء الاساسي للعقل ، ... وإنما كان أيضا استجابة لمتطلبات الواقع السياسي) (٦٦).

وبما ان ابن مسكويه كصديقه التوحيدي يؤمن بأن (ملاك العلم العمل) (٦٧) لذلك وظفت آراءه الاخلاقية والاصلاحية في المجالين ، السياسي والاجتماعي. ففي المجال السياسي يعد كتابه التاريخي المهم (تجارب الامم وتعاقب الهمم) مرآة صادقة عن القرن الرابع سياسيا ، واجتماعيا واقتصاديا ، ويبدو من مقدمة الكتاب ومن اسمه أنه أراد به ان يتخذ الناس ويخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يروي فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فمقصده مقصد

اخلاقي ، وهو المقصد الأسمى الذي ابتغاه في تأليفه^(٦٨) . وسواء تحدث فيه عن الحكام أو عن الاوضاع العامة فقد كان هدفه ذلك المثال الأعلى للحكومة والمجتمع ، أي كان يفكر بنموذج المدينة الفاضلة التي خُدها الفارابي على أثر افلاطون وارسطو.

إن كتابة التاريخ عند ابن مسكويه تندمج داخل مشروع فلسفي كان قد تبلور ونضج شيئا فشيئا منذ زمن طويل ، فالمظهر الخارجي لتجارب الامم يوحى بالتاريخ وعرض الاحداث بحسب التسلسل الزمني. ولكن تحت هذا الشكل الخارجي للكتاب يقبع هدف آخر للمؤلف. ذلك ان كتاب (تجارب الامم) مرتبط بكتاب (تهذيب الاخلاق) مثله في ذلك مثل (الحكمة الخالدة) . فالهدف من رواية الاحداث التاريخية هو في نهاية المطاف استخلاص العبرة والعظة من الماضي من أجل تحسين سلوك الناس واخلاقهم في الحاضر. ومن ثم فإن كل التجارب التاريخية المحسوسة التي يسردها مسكويه في كتابيه (تجارب الامم) و(الحكمة الخالدة) هدفها دعم النظريات والمبادئ الاخلاقية التي استعرضها بشكل تجريدي في كتابه الاساسي(تهذيب الاخلاق)^(٦٩).

وللكتاب أهميه تاريخية فيما يتعلق بالقرن الرابع الهجري ، وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين ووزراءهم الذين خدم في دولتهم ، منهم المهلبي^(٧٠) ، وابن العميد ، عضد الدولة ، فهو لم يكتف فقط بالتركيز على مزاياهم ومحاسنهم ، وإنما راح يصور خصومهم بشكل سلبي. والواقع ان احترامه للصداقة وعرفانه بالجميل هما الذي يمنعانه من إثبات شهادات الاعداء بصديقه ابن العميد ، وبالتالي فان سلبيات هذا الاخير لاتظهر في الكتاب^(٧١). ومن جانب آخر فهو لا يتردد في اطلاق أحكام سلبية قاسية على معز الدولة البويهي وابنه بختيار وركن الدولة وأبي الفتح بن العميد^(٧٢) ، بل وحتى عضد الدولة^(٧٣). وبهذا (يصبح التاريخ عنده فرعا من فروع الفلسفة الاخلاقية ينفلت عن كونه لاهوتيا مركزيا لكي يتركز على الانسان ، وانما هو المحل الذي تتبلور فيه الفلسفة الانسية المعلمنة)^(٧٤).

وهو لا يكتفي بذكر السلبيات والايجابيات ، وانما يقف محملا ، لذلك يعد كتابه (تجارب الامم) وثيقة مسرودة ضمن منظور نقدي غير مألوف لدى المؤرخين العرب بشكل عام^(٧٥).

ويرى مسكويه ان على الحاكم ان يتقيد بمجموعة من القواعد السياسية والاخلاقية، والتي نقلها عن قدماء الحكماء من فلاسفة اليونان وملوك الفرس ، وقد لخصها تقريبا في قول كسرى أنوشروان عندما سئل : (أي الناس أحق بالملك ؟) فأجاب : (أشدهم محبة لإصلاح الناس ، واعلمهم بالتدبير . قيل : ثم من ؟ قال : أشدهم سلطانا على هواه ، وأقهرهم له . قيل : فما الذي يعرف به الوالي رضا الرب عنه ؟ قال: ما رضي الله عن وال لا يدع لذاته وهواه ، ولا يترك شهواته في إصلاح رعيته وبسط العدل فيهم ورفع الظلم عنه)^(٧٦).

والعقل هو أول ما يجب على الحاكم ان يلتزم به برأي مسكويه ، لأنه (من عدم العقل فلن يزيد السلطان عزا)^(٧٧). فالعقل عند مسكويه هو أساس الأخلاق ونظير للوحي^(٧٨). فضلا عن ذلك يجب أن يتسم الحاكم بمكارم الأخلاق ، فأحسن الملوك أخلاقا (أوقرهم عند الغضب وأكثرهم حلما ودعة)^(٧٩).

أما عن سياسة الملوك مع رعاياهم فيذكر ما أوصى به بزرجه في كتاب له الى كسرى إذ يقول: (ويحق على الملوك أن يأخذوا للضعيف من القوي وللفقير من الغني بخصصهما من الحق ونصيبهما من العدل ..فلا ينبغي للملوك أن يأخذوا الرعية إلا بما ظهر لهم منهم ، ويتركون التظني ، فإن التظني يدعو الى التهمة والتهمة تدفع الى البلاء)^(٨٠). ويحذر مسكويه من العواقب الوخيمة للظلم والجور المستشريين في أيامه فيقول : (إذا لم يكن العدل غالبا على الجور ، لم يزل تحدث ألوان البلاء والآفات . وليس شيء لتغيير نعمة وتعجيل نقمة ، اقرب من الإقامة على الظلم)^(٨١). كما يؤكد مسكويه أهمية العلم والعلماء في خدمة السلطان وبلوغه الكمال في أخلاقه وسيرته ، لأن (أكثر ما ينتفع به السلطان ، صحبة العلماء ، والاستكثار من العلم)^(٨٢)

إن صلاح الأمة برأي مسكويه لا يقتصر فقط على صلاح السلطة السياسية ، بل يعد المجتمع ركيزة اساسية لهذا الاصلاح عن طريق غرس قيم جديدة وأخلاق فاضلة ، أي اصلاح المجتمع

بالأخلاق ، وتلك غاية مسكويه من اهتمامه بالأخلاق (غرضنا في هذا الكتاب ان تحصل لأنفسنا **خُلُقًا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة** ..)^(٨٣). لاسيما بعد ان رأى مدى الانحدار الذي شهده القرن الرابع الهجري على المستويات السياسية والاجتماعية والقيمية . (فحاول أن ينفذ الناس مما هم فيه من الانحلال الخلقي ، فاجتهد في أن يصور لهم ما يجب أن يكون عليه الانسان الراقي الذي يقاوم شهواته ، ويؤمن بقوة القانون الأخلاقي ، وإمكان تحقيق المثل العليا والفضائل الكريمة في سيرة الفرد والجماعة وذلك في كتابه "تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق")^(٨٤).

ويرى مسكويه أن صناعة الأخلاق وتهذيبها هي أفضل الأعمال وأكرمها (إن هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلها، أعني صناعة الأخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان... حتى تصدر عنه أفعاله كلها تامة كاملة بحسب جوهره ، ... أشرف الصناعات كلها وأكرمها)^(٨٥).

توجه مسكويه الى الانسان ، اللبنة الأساسية في المجتمع ، ووضع مجموعة من الاسس التربوية بغية توجيهه وتهذيبه ، أي تربيته وصولا الى تحقيق السعادة المنشودة التي تتعكس ايجابا على المجتمع بالأمن والطمأنينة . وقد انطلق مسكويه في هذا الجانب الاخلاقي الاصلاحى من تجربة ذاتية عاشها في بداية حياته إذ كان عابثا لاهيا منقادا لشهواته ، يقول في ذلك : (من لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوئه ، ثم ابتلي بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش وقبول أكاذيبه ، واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبايح ونيل اللذات .. وامتنح بأقران يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية ، ومال طبعه الى الاستكثار من المطاعم والملابس .. كما اتفق لي مثل ذلك في بعض الاوقات .. فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيما وخسرانا لا ربحا)^(٨٦). ويبدو ان مسكويه قد عدل عن سلوكه السابق واتجه نحو العلم والفلسفة والاخلاق لتقويم سلوكه ووضع كتابه هذا ليرشد المجتمع الى الصواب ، (ليعلم الناظر في هذا الكتاب اني خاصة تدرجت الى فطام نفسي بعد الكبر واستحكام العادة ؛ وجاهدتها جهادا عظيما ، ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيت لنفسي ، بل تجاوزت لك في النصيحة الى ان اشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري ، لتدركه أنت ، ودللتك على طريق النجاة قبل أن تنتيه في مفازة الضلالة ، وقدمت لك السفينة قبل ان تغرق في بحر المهالك)^(٨٧).

وبما ان الانسان هو مادة التربية الاولى في فكر مسكويه ، فقد كان له تصور عن الطبيعة الانسانية ومكوناتها ، فالانسان هو من أرقى المخلوقات ، بل أفضل مخلوقات الله ، فقد فضله بالعقل مصدر العلم والحكمة على الحيوان (الانسان إذا نقصت افعاله وقصرت عما خلق له ، اعني أن تكون أفعاله التي تصدر عنه وعن رؤيته غير كاملة أخرى بأن يحط عن مرتبة الانسانية الى البهيمية)^(٨٨).

والانسان برأيه يتشكل من نفس وجسم ، والنفس أسمى من الجسم وهي جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس ، يقول: (ان النفس ليست بجسم ، ولا بجزء من جسم ولا حال من احوال الجسم ، وانها شبيهة آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وافعاله)^(٨٩). ويبين ان النفس وان كانت تأخذ كثيرا من مبادئ العلوم عن الحواس، فلها من نفسها مبادئ أخرى لا تأخذها من عن الحواس، وهي المبادئ الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة^(٩٠). وبالرغم من انه أعطى للنفس قيمة أعلى من الجسد ، الا انه يرى ان التربية السليمة هي التي تراعي احتياجات كل من النفس والجسد باعتبارهما عنصرين مترابطين لا يمكن فصل احدهما على الآخر .

والاصل في مجتمع المسلمين برأيه انه مجتمع تعاون وتعاضد ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكانها كثيرة (وجب ان يقوم بجمعها جماعة كثيرة منهم .. وان يجتمعوا في زمان واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة ، لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقيين له ؛ فتكون الخيرات مشتركة والسعادة مفروضة بينهم .. ويتم للجميع ، بمعاونة الجميع ، الكمال الانسي)^(٩١).

واهتم مسكويه بالفضائل الانسانية وانعكاسها على المجتمع ، فهي التي تحقق السعادة بين افراده، وهي (الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، ولهذا لا يفتخر احد ولا يتباهى إلا بهذه

(الفضائل) (٩٢). كما ذكر اضدادها (الجهل والشرة والجبن والجور .. وهي امراض نفسانية تحدث منها أمراض كثيرة) (٩٢).

وتحتل الصداقة حيزا مهما في فكر مسكويه فهي التي تؤدي الى سعادة الانسان ، من حيث هو مدني بالطبع ، لأن الانسان بطبيعته شديد التأثر بغيره ، والسعادة تكتمل بالاعوان الصالحين والاصدقاء المخلصين ، يقول ناقلا قول ارسطو طاليس في الصداقة: (ان الانسان محتاج الى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال .. ولعمري ان الملك العظيم يحتاج الى من يصطنعه ويضع احسانه عنده ، كما ان الفقير من الناس يحتاج الى صديق يصطنعه ويضع احسانه عنده المعروف .. ومن أجل فضيلة الصداقة يشارك الناس بعضهم بعضا ويتعاشرون عشرة جميلة) (٩٣). ولا يفوت مسكويه ان يحذر من رفقاء السوء ، فالصبي خاصة يسهل عليه أن يقلد زملاءه وأن يشاركهم فيما يقومون به من أعمال (٩٤).

ومن أهم مقولاته في هذا الباب اهتمامه الكبير بتربية الأطفال أو الأحداث ، إذ وضع دستوراً في تهذيب الاطفال ، وغرس الفضائل في نفوسهم منذ الصغر ، وترك الرذائل والالتزام بالشرعية الاسلامية من طاعة الله ورسوله ، (والشرعية هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل ، والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم) (٩٥). ويرى أيضا ان اكتساب الاخلاق يعتمد التدريب المستمر على ممارسة الأدب الجميل والاعمال الحسنة ، والاعتقاد عليها حتى تكون عادة راسخة في الانسان ، لأن الاخلاق ليست فطرية يقول : (وعلى الوالدين أخذهم بها ويسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من الضرب، إذا دعت اليه الحاجة أو التوبيخات ان صدتهم ... حتى إذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمن كثيرة أمكن فيهم حينئذ ان يعملوا براهين ما اخذوه تقليدا) (٩٦).

ويشير مسكويه الى مسألة مهمة وهي تهذيب نفس الصبي وحمايته من أصدقاء السوء ، لأن هذه (النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ولا تترك ، ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة .. فان نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ، ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء الى شيء ، فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها) (٩٧). كما وضع مسكويه دستوراً لتعليم الاطفال آداب السلوك والمعاملة والطعام والحديث والملبس الى غير ذلك (٩٨). كي يعيش سعيدا (وهذه الآداب النافعة للصبيان هي للكبار من الناس أيضا نافعة ولكنها للأحداث والصبيان أنفع ، لأنها تعودهم محبة الفضائل وينشأون عليها ، فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل ، ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحدده الشريعة والسنة ، ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة ، وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها، ... وترقيهم الى معالي الامور .. من التقرب الى الله عز وجل ... مع حسن الحال في الدنيا وطيب العيش) (٩٩).

وقد أبدى مسكويه اهتماما كبيرا بالبيئة التي ينشأ فيها الطفل ، وانعكاسها على أخلاقه ، وطبعا يعطي للوالدين الأولوية العظمى في هذا الجانب ، أي دور الاسرة في عملية التنشئة الاجتماعية للطفل (١٠٠). ولا يفوت مسكويه ان يربط العلاقة التي بين الاب وولده بالسلطان ورعيته وما أقرته الشريعة السمحاء ، (ان مراعاة الملك لرعيته هي مراعاة الأب لأولاده .. شفقة وتحننا وتعهدا وتعظفا خلافة لصاحب الشريعة (ص)، بل لمشرع الشريعة تعالى ذكره في الرأفة والرحمة ، وطلب المصالح لهم ودفع المكاره عنهم وحفظ النظام فيهم) (١٠١).

لقد كان هدف مسكويه من وراء هذا العمل ، تقديم كتاب واضح ومكتمل وبسيط الى طلاب الفلسفة فالكاتب الفلسفية السائدة آنذاك كانت عبارة عن ترجمات للمؤلفات الاغريقية بأسلوب صعب ، أما مسكويه فلم يكن فيلسوفا محضا أو صرفا كابن سينا والفارابي ، فقد كان يتجنب الصعوبة ويتحاشى اللغة الاكاديمية والمصطلحية المحضة (١٠٢) ، لذا فهو قد هبط بفلسفته الاخلاقية والتربوية من ميدان البحث النظري الى أرض الواقع ، لأن هدفه اصلاح المجتمع وانشاء مجتمع فاضل تسوده المحبة والتعاون والصداقة والقيم الاسلامية مما افتقده عصره آنذاك

